معي منهما أكثرُ مما قصَّر بي في حُسن الصورة؛ وسأبلغ محبَّتك في كل ما تأمرني. ولو أنت آذيتَني لعددتُ الأذى منك نعمةً، فكيف إن وَسِعني كرمُك وسترُك؟ إنك لا تعامل الله بأفضلَ من أن تكون سبباً في سعادة بائسة مثلي. أفلا تحرص ياسيدي على أن تكون هذا السببَ الشريف؟»

ثم إنهـا وثبتْ فجاءت بمال في كيس وقالت: ياسيدي، قـد أحلّ الله لك معي ثلاثَ حرائر وما آثرته من الاماء؛ وقد سوَّغتُك تزويجَ الثلاث وابتياعَ الجواري من مال هـذا الكيس، فقد وقفتُه على شهواتك، ولستُ أطلب منك إلا سترى فقط.

***

قال أحمـد بن أعين: فحلف لي التاجر: إنها ملكتْ قلبي مِلْكاً لاتصل اليه حسناءُ بحسنها، فقلت لهـا: إن جزاء ما قدَّمتِ ما تسمعينه مني: «والله لأجعلنّك حظيّ من دنيـاي فيما يُؤْثِره الرجل من المرأة، ولأضربَنّ على نفسي الحجاب ماتنظر نفسي إلى أنثى غيرك أبداً.» ثم أتممتُ سرورَها فحدثتها بما حفظته عن أبي عبد الله البلخي. فأيقنتْ والله يا أحمـد أنها نزلتْ مني في أرفع منازلها، وجعلتْ تحسُن وتحسن كالغصن الذي كان مجرودا ثم وخزته الخضرة من هنا ومن هنا.

وعاشرتُهـا فاذا هي أضبط النساء، وأحسنهن تدبيراً، وأشفقهن عليّ، وأحبُّهنّ لي؛ وإذا راحتي وطاعتي أوَّلُ أمرها وآخره؛ وإذا عقلها وذكاؤها يُظهران لي من جمال معانيها ما لا يزال يكثر ويكثر، فجعل القبح يقلّ ويقل، وزال القبح باعتيادي رؤيته، وبقيتْ المعاني على جمالها؛ وصارت لي هذه الزوجة هي المرأةَ وفوق المرأة.

ولما ولدتْ لي جاء ابنها رائع الصورة، فحدثتني أنها كانت لاتزال تتمنّى على كرم الله وقدرته أن تتزوّج وتلد أجمل الأولاد، ولم تدع ذلك من فكرها قط، وألّف لها عقلُها صورة أجمل غلام تتمثَّله وما برحت تتمثله. فاذا هي أيضا كان لها شأن كشأني، وكان فكرُها عملاً يعمل في نفسها، ويديرها ويصرّفها.

ورزقني الله منها هـذين الابنَيْن الرائعيْن لك. فانظر أيّ معجزتين من معجزات الايمان.؟

طنطا مصطفى صادق الرافعي

صفحة من التاريخ

ميـــدان القبق

بين السعد والنحس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

صف لي ملاهي قوم من الأقوام أصف لك خلقهم ونصيبهم من الحياة — وإذا أخطأني حظ الاصابة مرة لم يكن الخطأ إلا مؤقتاً، ويكون تطاول الأيام كفيلاً بتحقيق ما أتوقع — وليس ذلك ناشئاً من أن الله قد وهبني ما لم يهب سواي من قدرة على التكهن أو التنبؤ، بل هي مجاري الأقدار تنساق في سبيل لا حيلة في الحيد عنها، ولا وسيلة إلى الانفلات منها.

وقد علمت أن الرومان أقبلوا على ملاهٍ يقشعر بدن الانسانية من تصور ما كان يجرى فيها من فظائع. وايمن الحق ما كان لامرىء أن يتنبأ لشعب الرومان إلا بالانحدار والانحلال ما دامت نفوسهم لا تهتز إلا بسفك الدماء، ولا ترتاح إلا إلى مناظر الوحشية. وقد رأيت ماتنم عليه آثار مدنية بومبي من هُوِىّ إلى سحيق الدعارة، وما كان لك أن تتطلع في مستقبل ذلك الشعب إلا إلى نزول وهبوط، إذ أن النفوس لا تلهو إلا بما مرنت عليه واطمأنت إليه وسرى في عاداتهـا وتغلغل في حياتها. وللحياة القوية مطالب وتكاليف، إذا اعتادت النفوس القيام عليها صارت لذتها في مباشرتها. ودونك من الشعوب القوية ما يوضح ذلك أتم إيضاح، فذلك شعب الانجليز ترى لذة شبانه وكهوله في ممارسة الرياضة بأنواعها، والجولان في البحر والبر والهواء، يجدون اللذة القصوى في مقارعة الأخطار ومقابلة العقبات. وإذا شئت مثلاً آخر فلن تعوزك المُثُل؛ فالشعوب القوية ولله الحمد كُثْر في كل عصر، ولن ترى شعباً قوياً تنزو به الحياة وتثب به القوة إلا رأيت لذته في مثل مقارعة الخطوب ومنازلة قوى الطبيعة. ولقـد كان لنا آباء — رحمهم الله — لم يكونوا من المتخلفين في ميـدان الحياة. بل كانوا حماة عصرهم وسادة جيلهم. ولست

أتردد فى أن أسميهم بالآباء ، على أنهم قد لا يكونون لى آباء . كما أننى لا أتردد فى أن أسمى الفراعين آبائى ، ولعلهم لم يكونوا من آبائى . فانى لا أجرى فى دماء الملوك . ولئن كان فىَّ شئ منها فقد جهلته . فالملوك الأقدمون منذ خلدوا على صفحات التاريخ قد أصبحوا اليوم آباء لنا فى أنهم كانوا الحفظة لمُثُلنا العليا ، والقوَّامَ على آمالنا القومية . فهم آباؤنا فى التراث القومى وإن بعدت بيننا علاقات النسب . لا ، بل وإن اختلفت ألوان الدماء وتباينت مواطن الشعوب .

فى جانب القاهرة المعزية من الشمال الشرقى حى اسمه الآن حى العباسية الشرقية ، ومن ورائه من ناحية الجبل مساحة عظيمة مسطحة لا تكاد ترى فيها نشزاً . وقد اختطت فى بعض جهات هذا المتسع فى أيامنا الحاضرة مدافن حديثة شقت ما بينها الشوارع وأنشئت الحدائق ، وهذا السهل يتصل إلى جنوب القاهرة فيما يلى قلعة الجبل لا تكاد ترى فى كل هذه المسافة تلا يعكر سهولة السطح ، وهذه المساحة هى بعينها الميدان القديم الذى أنشأه أحد أجدادنا العظام الذين قدمت الاشارة إليهم ، وهو الملك العظيم الظاهر بيبرس البندقدارى ؛ وكان اسم هذا الميدان الفسيح فى تسمية العامة : (الميدان الأسود) أو ميدان السباق . وكان فى تسمية الخاصة : (ميدان القَبَق) .

أما القبق فهو آلة من آلات التمرين الحربى ، وهو عبارة عن قرص كبير من الخشب يوضع فوق سارية عالية ، ويوضع وراءه هدف يرمى إليه الجنود سهامهم ؛ وكان الرمى بالقسى والسهام من أكبر وسائل الرياضة عند أهل ذلك العصر من سنى القرن الثالث عشر الميلادى أو القرن السابع الهجرى .

وكانت مصر حينئذ قلب الشرق الاسلامى وكنانته . إذ كانت بلاد ما بين النهرين قد أكلتها نيران التتار ، وأصبحت دامية صريعة تئن تحت سنابك خيل أحفاد جنكيز خان . وكانت بلاد الشام لا تزال تعانى بقايا الفتح الأوربى الذى اعتراها فى مدة الحروب الصليبية ، وكانت أوربا لا تزال فى أول أدوار النهضة بعد أمد العصور الوسطى ، ولا تزال على عقليتها القديمة التى دفعتها الى الحروب الصليبية تحاول ما استطاعت أن تبطش بدول الاسلام . فكان على دولة مصر أن تحفظ مدنية الاسلام ، وتراث العلم والنور من موجة التتار المخربة المدمرة من جانب الشرق ، وأن تدفع عادية أوربا المحنقة الثائرة من جانب الغرب . ولهذا كان لا مفر من أن تكون مصر على رباط دائم ، وفؤاد يقظ حديد .

وكان بيبرس ممثل الدفاع فى القرن الثالث عشر الميلادى ؛ حمل الراية مدة حكمه الطويل فكان بطلاً موفقاً مجدوداً

لم تكن أعوامه تخرج عن عام غزو فى بلدة من بلاد الشام ، أو عام موكب انتصار عقب فتح من الفتوح . وما كانت مواسم مصر على يديه إلا تلك المواسم النابضة بالحماسة ، الحياشة بمعانى الرجولة والحياة القوية .

وكان ميدان القبق مشهد أكبر المواسم وأحبها الى الناس ، سواء فى ذلك العامة والخاصة . وها نحن أولاء نصف واحداً من تلك المواسم البيبرسية التى سادها السعد والتوفيق ؛ فكان مبعث سرور للآلاف من الناس وآية مجد وجلال للدولة ورجالها .

كان ذلك فى يوم شديد الحر فى شهر رمضان ؛ وكانت العادة أن ترش أرض الميدان الأسود بالماء قبل أن يبدأ فيه الاحتفال ؛ فرأى السلطان الجليل (بيبرس) أن رشّ هذا الميدان الفسيح فى مثل هذا اليوم القائظ وفى شهر الصيام فيه تكليف شاق على الناس . وأشفق أن ينالهم من ذلك أذى ، فأمر بأن يكف الناس عن الرش وأن يتحمل هو وجنوده مشقة الاحتفال فى القيظ بغير ترطيب الأرض بالماء .

وأبى الله أن يجزى مثل هذا العطف بغير جزائه . فكان من دلائل سعد السلطان وعن أيامه أن ساقت الرياح غمامة فى ذلك اليوم على غير عادة فى مثل ذلك الوقت ، فأمطرت الميدان حتى رطبت أرضه ، ثم أقلعت . وما أتى وقت الاحتفال حتى رأى بيبرس وفرسانه ميداناً دهسا غير ملبد ولا زلق .

ودخل السلطان العظيم على رأس قواده وجنوده ، فكلف كبارهم باظهار ما عندهم من البراعة فى الرماية . ووقف الناس ألوفا حولهم يعجبون بما يرون ، وتثب قلوبهم سروراً بما يعجبون به ، إذ رأوا حماتهم جديرين بما أولوهم من زعامة فى الدفاع المجيد .

ثم ركب السلطان فى قمة الصف ، واصطف وراءه القواد والجنود بحسب المراتب المرسومة ، وحمل كما يحمل إذ يكون

في ميدان الحرب وحمل وزاءه أتباعه كباراً وصغاراً ، كأنما هم رجل واحد ، ولهم إرادة واحدة . فاذا كر السلطان كانت الألوف وراءه كجزء منه ، وإذا لف كانت الألوف من خلفه كأنما هي قطعة واحدة — وتعالت عنـــد ذلك أصوات الأعجاب والحماسة ، واختلطت بزفرات اللقاء والولاء ، فلقد كان بيبرس العظيم مايكاً على الناس مسيطراً على الأفئدة .

وانتهى اليوم على ما ابتدأ به من السعد ، ووزعت الهبات والصلات ، وتتابعت العطايا والهدايا ، ونال الناس من بر ذلك اليوم ما لم يفت طبقة من الطبقات ، فقد قرت أعين الأمراء بالتكريم ، وأثلجت صدور الفقراء بالعطاء .

وما كان مثل عصر (بيبرس) ليذهب بغير أثره ، فقد أصبح الناس جميعاً ولا همة لهم إلا في تقديس أبطال الفرسان ، ولا مسرة إلا ما تبعثه مناظر الكر والفر ، وأصبح بفضل هذا الروح في مصر جيش من أبطال ما زالوا مضرب الأمثال في النظام والشجاعة والمهارة ، وأصبح الشعب وذهنه منصرف إلى ناحية حياة الرجولة والدفاع والنضال ، لايقبل على لهو إقباله على شهود أيام الاحتفال . قال المقريزي في وصف ذلك : « وصارت تلك الأمكنة لاتسع الناس ومابقي لأحد شغل إلا لعب الرمح ورمى النشاب » .

غير أن ذلك الميدان لم يشهد السعد وحده ، بل شهد بعض ساعات من النحس بعد أن تغير الزمان وتبدل الحال . ولم يكن في الامكان أن يجود الزمان بالأفذاذ يتبع بعضهم بعضاً بغير انقطاع . وإلا فلم سمي الأفذاذ أفذاذاً ؟

فحكم مصر في أواخر القرن الثالث عشر المسيحي سلطان آخر يمتاز عن بيبرس بأنه من سلالة ملكية ، إذ كان أبوه سلطاناً قبله ، غير أنه لم يكن في مثل قوة بيبرس ولا في مثل توفيقه وسعده ، وذلك هو السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .

أراد يوماً أن يحتفل احتفالاً مجيداً كمن سبقه من السلاطين العظام ، واختار ميدان القبق لذلك الاحتفال ، وأراد أن يجعل ذلك الاحتفال على ما شاء له الملك الضخم والغنى الواسع وبيت العز الجليل . وكانت الخاتون الجليلة زوجة السلطان على وشك أن تضع ولداً . وكان أكبر أمل الملك العظيم أن تلد له غلاماً يكون وارثاً لملك جده وأبيه ، وسبق السلطان الأقدار إلى إعداد العدة لاستقبال المولود السعيد المنتظر ، وكان يرجى أن يكون يوم ذلك الاحتفال هو يوم الوضع الموعود .

ومهد الميدان ورشت جوانبه ، وجهزت أدواته وآلاته ، وزينت طرقه وحواشيه ، وأقبل السلطان في موكبه الفخم وركابه المهيب . وابتدأ الاحتفال يباهي الايام الماضية بجلاله وضخامته ، غير شيء واحد كان غير مائل فيه ، وهو جلال بيبرس العظيم وتعلق قلوب الشعب والجنود به . وجرى كل شيء على سَنَنِهِ المعتاد غير أمر واحد ، وهو سعد السلطان بيبرس العظيم وتوفيقه . فماهي الا جولة حتى اغبر الجو وأظلمت السماء ، وثارت عاصفة هوجاء يكاد الواقف فيها لا يرى جاره أو يستبين ما حوله . فتحول اليوم من احتفال وعيد الى فوضى واختلال ، وهدم في ساعة ما قضى السلطان في إعداده أياما طوالا وبذل في سبيله اموالا طائلة . ثم وضعت الخاتون طفلها أنثى ، ولم يتحقق أمل السلطان في وارث يحفظ الملك عقبه في بيته .

وهكذا تجري الأقدار في مسالكها الغامضة ، وإنما يرى الناس منها الآثار التي تدهش لها الألباب وتعشى منها الأبصار ، بغير أن يستطيعوا رؤية ما وراء ذلك من تدبير القضاء ، فكان ذلك اليوم آخر ما شهده ميدان القبق من جليل الاحتفال . حقاً لقد عاد اليه بعض الملوك حيناً ولم يرجعوا اليه الحلبة ، غير أن الروح لم يعد إليه ، والروح سر عجيب لم تستطع البشرية أن تسمو اليه ، فانه يحل فلا تعرف أنه حل الا بين آثاره ، ثم يذهب فلا تدرك ذلك الا من آثار ذهابه ، ولكنه غامض غموض المغيب المحجوب . ومن أعجب ما فيه أن السعد إنما يقبل مع اقباله ، والنحس إنما يحل عند إدباره ، وانه إذا كان أدبر يوماً ، فلا جرم أنه يدبر لكي يعود في يوم آخر ، ولو بعد حين .

محمد زكي أبو حديد

ضحى الاســـــلام
وهو الكتاب التالي لفجر الاسلام
لمؤلفه احمد أمين
ثمنه ٢٠ قرشاً